بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 15 ديسمبر 2016

عائشة أمّ المؤمنين
بين خيال الرواة وواقع الحياة

محمّد حسن بدر الدين
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

ملخّص:

اهتمّ كتّاب السِّيرة والحديث بتسجيل الأحداث والوقائع المتعلّقة بتاريخ الإسلام وسيرة النبيّ وحياته، وقدّموا أفهامًا وتحليلاتٍ تتناسب مع بيئتهم وظروف عصرهم، في فهم الدّين والحياة، وفي كلّ ما يتعلّق بالإسلام عمومًا، وخاصّة في جوانبه الاعتقاديّة والاجتماعيّة.

وقد انقسم المسلمون، في التّعاطي مع تلك الكتب والأفهام إلى ثلاث فئات: فئة أولى رأت أنّ ما ورد في تلك الرّوايات والأحاديث من كتب وتصانيف، هي المرجع الأسمى والحقّ المُبين، مع اختلافات جزئيّة في الفهم والتأويل. وثانية رأت أنّها تشمل الصّواب والخطأ باعتبارها نتاجًا فكريًّا بشريًّا تعتريه نقاط الضّعف والقوّة. وثالثة رأت أنّ تلك الكتب والأفهام حرّفت الإسلام، وأعطت لأعدائه سلاحًا يحاربونه به.

لا يهدف هذا البحث إلى عرض تلك المواقف وتحليلها، وإنّما يركّز على إبراز أهميّة تلك الرّوايات وقيمتها في تقديم بعض الشخصيّات الإسلاميّة التي قامت بدور أساسيّ في الإسلام وتاريخه، وتوجيه المعلومات التاريخيّة والشّخصيّة التي قدّمتها، والاشتغال عليها تعريفًا وتصنيفًا وتفكيكًا.

ولئن كان محمّد هو المحور الأوّل والمرجع الأساس، في تلك الكتابات، فإنّ «عشيرته الأقربين» من أهله وأصدقائه وأزواجه وصحابته، كانوا أيضًا محلّ عناية واهتمام، فقد تناولتها تلك المصنّفات وتوجّهت إليها بحسب قربها المادّي والمعنويّ والعاطفيّ من شخص النبيّ.

وقد اخترنا عائشة أمّ المؤمنين أنموذجًا، للتّدقيق ورفع بعض اللّبس في بعض الإشكاليّات المتعلّقة بسنّها وخطبتها وزواجها وتاريخها العائلي، لنقدّم قراءة جديدة ومختلفة عمّا هو سائد في أدبيّات الفكر الإسلامي القديم والحديث، وفي خيال الباحثين المعاصرين من مسلمين ومستشرقين.

التراث حمّال وجوه:

كثيرًا ما صبّ المسلمون جام غضبهم على بعض الكتّاب والمستشرقين في كتاباتهم عن الإسلام عمومًا وعن النبيّ والقرآن خصوصًا، ولسنا في محلّ دفاع عن أولئك، لا محالة، وإنّما نريد الإقرار بظاهرتين على الأقلّ في هذا المجال.

الأولى: أنّه لا تخلو بعض كتابات أولئك من طرافة تتمثّل في النّقد الموضوعيّ والاستنتاج المنطقيّ السّليم.

والثانية: أنّ ما يمسّ الإسلام من قريب أو من بعيد، له أصل في تراثنا المتمثّل في كتب التّاريخ والسّير والتّراجم، وخصوصًا في كتب الحديث، وقد يختلف المنهج من دارسٍ ناقدٍ موضوعيّ إلى آخر متحامل مشوّه للتّاريخ ومحرّف للكلم عن مواضعه، ولكنّ الأصل واحد.

قد يعمد بعض الكتّاب إلى اجتثاث الرّوايات من كلّ مستلزماتها من حيث السّند والمتن، وإهمال ما يتعلّق بسمت اللّفظ العربيّ في دلالاته المتعدّدة، واقتطاع عبارات وألفاظ، وبناء مقالة لقرّاء يجهل أكثرهم العربيّة، ولا يدرون ما تاريخ الطّبري ولا صحيح مسلم، وقد يكون الكاتب عربيًّا، وقد يكون مسلمًا، وقد يكون ملحدًا، ولكنّ ذلك لا ينفي اعتماده على مراجع عربيّة فيها من الشّبهات والمشكلات ما يدوّخ كثيرًا من العقول المسلمة.

ولعلّنا أشرنا إلى العقبة الكؤود التي تحتاج كثيرًا من الرّدود والجهود، فأيّ طريق سيسلك هذا البحث في كلامه عن عائشة أمّ المؤمنين؛ لوضع الأمور في نصابها وتحرير العقول من أعبائها؟ فلنبدأ بالأصول.

أبو بكر الصدّيق (ت: 13ه)

ذكر **ابن خلّكان** (ت: 681هـ) أنّ أبا بكر كان اسمه في الجاهليّة عبد الكعبة: «فسمّاه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عبد الله. ولقبه عتيق، لُقّب به لجمال وجهه، وتوفّي لتسع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، وسنّه ثلاث وستّون سنة».[1]

متى ولد؟

الافتراض الأوّل: إذا كان عمره 63 سنة لمّا توفّي سنة: 13هـ/634م، فيكون ولد عام: 571م، أي عام الفيل. أي في السّنة نفسها الّتي ولد فيها الرّسول.

1 - ابن خلّكان (ت: 681هـ) وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 1900م. 3/64

الافتراض الثّاني: وُلد قبل سنة 571م، أي بين 566 و569م. وهذا يجعل عمره أكثر من 63 سنة.

الافتراض الثّالث: إذا قلنا بما تواتر عند بعض المؤرّخين من أنّه ولد «بعد عام الفيل» بسنتين أو ثلاث، فيكون مولد أبي بكر الصدّيق عام 573 أو574م وهذا يجعل عمره 61 أو 60 سنة.

ولكنّه يتعارض مع الافتراضين السّابقين، ومع المأثور القائل بأنّه بلغ الثّالثة والستّين. وقد أرّخ **الزّركليّ** مولده في كتاب الأعلام بسنة 51 ق.هـ/573م، وفق الافتراض الثّالث.[2]

وأيّا كان ذلك، فأبو بكر والرّسول تِرْبان من جيل واحد، تفصل بينهما بضع سنوات. وترجيحًا لبعض الرّوايات وللمنطق، فإنّنا سنأخذ بالافتراض الثّاني.[3]

نشأ أبو بكر في عائلة موسرة وتعلّم القراءة والكتابة، تعلّم الشّعر واهتمّ بالتّاريخ والأنساب وأخبار العرب، وصار مرجع قريش في أنسابها واعتُبر: «أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها، وبما فيها من خير وشرّ». وميزته في الأنساب هي: «أنّه لم يكن يعيب الأنساب ولا يذكر المثالب بخلاف غيره». ممّا حبّبه إلى قلوب العرب ورفع درجته وذكره بينهم.[4]

امتهن التّجارة بمفهوم «التّصدير والتّوريد» عندنا اليوم، فكان يرتحل ويتنقّل بين البلدان، ولعلّ ثراءه وأمانته وعونه للمعوزين والمساكين جعلت قريشًا توكل إليه «الأشناق»؛ وهي الدّيات والمغارم، وتخصّه بها: «فكان إذا حمل شيئًا فسأل فيه قريشاً صدّقوه وأمضوا حمالة من نهض معه، وإن احتملها غيره خذلوه».[5]

لا خلاف أنّ أبا بكر كان في قريش أحد ساداتها ووجهائها وعلمائها وأثريائها، فكان «وسطًا» بين العرب وسيّدًا في قومه، وقد ضمّت تلك الحلقة من الوجهاء والنّبهاء والمسؤولين في قريش قبل الإسلام؛ عمر بن الخطّاب وخالد بن الوليد إلى جانب أبي بكر.

فلا غرابة أن يكون محمّد بن عبد الله ضمن تلك المجموعة وأن تربط بين الكثيرين منهم علاقات صداقة تتمتّن بمرور الزّمن وتجارب الأيّام، وتتقوّى وشائج العاطفة وروابط الفكر بين زمرة منهم. فالصّداقة والمحبّة بين محمّد بن عبد الله وأبي بكر وعمر، لنكتفي بهؤلاء، لم يكن سببها الإسلام، وإنّما منشؤها هو التعايش الاجتماعيّ بما فيه من شراكات ومناقشات وتدبّر منذ الصّبا والشّباب.

---

2 - الزّركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة: 15، أيار/ مايو 2002م، 4/102. فيكون المولد والوفاة كما يلي: (51 ق هـ - 13هـ = 573 - 634م).

3 - العجيب أنّ علي الطنطاوي خصّص كتابًا كاملًا لأبي بكر، ولم يتعرّض لمولده، ولكنّه يذكر أنّه كان خَدَنًا للنبيّ وصَفِيًّا له في الجاهليّة، وأنّه كان معه حين ذهب مع عمّه الى الشّام واجتمع ببحيرا الرّاهب، تأثّرًا منه بخرافة الرّاهب بحيرا التي روّجها المسعودي في مروج الذّهب والطّبري في تاريخه. انظر: علي الطنطاوي، أبو بكر الصدّيق، دار المنارة، جدّة، الطبعة الثالثة، 1406هـ، 1986م، ص65.

4 - ابن هشام (ت: 213هـ) السّيرة النبويّة، تحقيق: مصطفى السقا، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطبعة: الثانية، 1375هـ/1955م.1/250

5 - ابن عساكر (ت: 571هـ) تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنّشر، بيروت، 1415هـ، 1995م.24/118.

وإنّنا لنجد قواسم مشتركة بين أفراد كثيرين من ذلك الجيل المتعلّم والمثقّف؛ من ذلك أنّ أبا بكر أنف شرب الخمر فلا عرف ذوقها قبل الإسلام ولا بعده، لم يكن الوحيد في ذلك، بل لعلّ اجتناب الخمر كان من العوامل التي لمّت شمل ثلّة من شباب قريش مواليد عام الفيل، وقبله ببضع سنين وبعده بقليل، كذلك، لم يلتفت أبو بكر إلى آلهة قريش والعرب فلا وضع تمثال إله في بيته ولا هو سجد لحجر، ولا دعا ولا نحر لهبل أو غيره، لم يكن الوحيد أيضًا، ونحن نضع عمر بن الخطّاب ضمن أولئك الّذين رفضوا الأصنام، ونكذّب تلك الخرافات المرويّة عنه، لا تنزيهًا له ولأبي بكر، وإنّما اعترافًا بعقليهما الفذّين وإجلالًا للعقل.

زيجاته:

تزّوج أبو بكر الصدّيق من أربع نسوة هنّ على التوالي:

1- قتيلة، أو قيلة، بنت عبد العزّى بن أسعد، تزوّجها وطلّقها قبل ظهور الإسلام، ولدت له عبد الله وأسماء.

هل يتّفق هذا مع ما افترضناه من تواريخ ولادة أبي بكر؟ قبل ظهور الإسلام، أي قبل سنة 610م. في سنة 609م، بحيث يكون عمر أبي بكر بين 40 و43 سنة.

2- أمّ رومان (ت: 6هـ) بنت عامر بن عويمر، وكانت أرملة الحارث بن سخبرة، ولدت له عبد الرّحمن وعائشة.

لا نعتقد أنّ أبا بكر بقي عزبًا بعد طلاقه مدّة طويلة، وهذا يفيدنا أنّ عبد الرّحمن وعائشة ولدا أيضًا قبل ظهور الإسلام بسنين.

3- أسماء بنت عُمَيس بن معبد بن الحارث، أرملة جعفر بن أبي طالب الّذي استشهد يوم مؤتة، ولدت له محمّدا.

4- حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير الأنصاريّة الخزرجيّة، ولدت منه أمّ كلثوم بعد وفاته.[6]

عبد الله بن أبي بكر (؟11-هـ/؟632-م)

«عبد الله بن أبي بكر الصدّيق: صحابي، من العقلاء الشّجعان، أسلم قديمًا، وكان يحمل الطّعام وأخبار قريش إلى النبيّ وأبيه إذ هما في الغار، وشهد فتح مكّة وحُنينا والطّائف، وأصيب يوم الطائف بسهم، فلم

6 - محمّد ضيف الله بطانية، الحياة الاجتماعيّة في صدر الإسلام، مكتبة دار الحياة، المدينة المنوّرة، 1409هـ، 1988م. ص 56.

يؤذه في حينه، وانتقض عليه بعد ذلك فتوفّي بعلّته. له شعر اشتهرت منه أبيات في زوجته عاتكة أوردها ابن حجر في الإصابة».[7]

«عبد الله بن أبي بكر قُتل يوم الطّائف وأخته لأمّه أسماء ابنة أبي بكر الصّديق».[8]

«عبد الله بن أبي بكر الصّديق رَضِي الله عَنْهُمَا أمّه وَأمّ أَسمَاء وَاحِدَة إمرأة من بني عَامر بن لؤَي اسْمهَا قتيلة. شهد عبد الله بن أبي بكر الطَّائِف مَعَ رَسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وَسلم فَرَمَاهُ أَبُو محجن الثَّقَفِيّ فدمل جرحه حَتَّى انْتقض بِهِ فَمَاتَ مِنْهُ سنة إِحْدَى عشرَة».[9]

حسب ما أمكن الاطّلاع عليه من المصادر، لم يذكر أيّ مؤرّخ كم عاش عبد الله بن أبي بكر. نفترض أنّ أبا بكر تزوّج وهو في العشرين من عمره، وأنّ الولادة كانت بفارق سنتين، فيكون عندنا الجدول الآتي:

سنة ولادة أبي بكر	566م	567م	568م	569م
زواجه في العشرين	586م	587م	588م	589م
ولادة عبد الله	588م	589م	590م	591م
ولادة أسماء	590م	591م	592م	593م

أسماء بنت أبي بكر (ت: 73ه)

قالت الكاتبة الفرنسيّة جنفياف شوفل، التي خصّصت قصّة كاملة عن حياة عائشة أم المؤمنين: «كانت زوجته السّابقة قد ماتت وهي تضع الصّغير، طفلة صغيرة كان سمّاها أسماء. كان يتذكّر الحزن والوحدة، ثمّ إنّ أمّ رومان كانت قد دخلت في حياته وقد عرفت كيف تدفئ قلبه».[10]

سطران من كتاب جنفياف شوفل (Geneviève Chauvel) عن عائشة تعلّمنا «المتخصّصة في الإسلام» أنّ قتيلة، أولى زوجات أبي بكر، ماتت في نفاسها وهي تضع أسماء؛ فأسماء، حسب تلك «المتخصّصة»، عاشت يتيمة الأمّ، فعلينا إذن أن نصدّق كاتبة المسلسلات العاطفيّة، ونكذّب اتّفاق مؤرّخينا؛ على أنّ أبا بكر طلّق قتيلة في الجاهليّة، وأنّها عاشت شيخوخة مزمنة، وأنّه اختُلف في إسلامها، وأنّها زارت

7 - الزّركلي، الأعلام، 4/99. سبق ذكره.

8 - ابن عساكر، تاريخ دمشق، 69/6. سبق ذكره.

9 - الصّفدي (ت: 764هـ) الوافي بالوفيّات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ، 2000م. 17/49.

10 - page.22 Aïcha, la bien-aimée du Prophète (Télémaque, Paris 2007)

(Son épouse précédente avait expiré en expulsant le bébé, une petite fille qu'il avait appelée Asma. Il se souvenait de son chagrin, de la solitude. Puis Oum Roumane était entrée dans sa vie, et avait su réchauffer son cœur.)

ابنتها أسماء لأنّها فقدت السّند، وأنّ «أسماء قالت: يا رسول الله، إنّ أمّي قدمت، وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: نعم، صلي أمّك»! وأنّ الله تعالى أنزل في ذلك آية في برّ الوالدين ولو كانا مشركين.[11]

لم نذكر مولد أسماء لنتحدّث عن سيرة هذه الصحابيّة الّتي كانت من أوائل المجاهدات في سبيل الله ونصرة الحقّ، وكانت، وما تزال، من النّماذج اللاّمعة للمرأة بغضّ النّظر عن العرق والجنسيّة والدّين. يهمّنا أن نحدّد اعتمادًا على المرويّات في تراثنا، متى وُلدت أسماء عسانا نعرف متى وُلدت عائشة.

«أسماء بنت أبي بكر الصدّيق، وأمّها قتيلة بنت عبد العزى، وهي أخت عبد الله بن أبي بكر الصدّيق لأبيه وأمّه، أسلمت قديمًا بمكّة وبايعت رسول الله، تزوّجها الزّبير بن العوّام بمكّة فولدت له عدّة، ثمّ طلّقها. وكانت مع عبد الله ابنها حتّى قُتل، وبقيت مائة سنة حتّى عميت، وماتت بعد قتل عبد الله بن الزّبير سنة ثلاث وسبعين، بعد ابنها بليال. قال ابن أبي الزّناد: (وكانت أكبر من عائشة بعشر سنين). قال أبو نعيم الحافظ: (أسماء بنت الصدّيق أبي بكر كانت أسنّ من عائشة). وُلدت قبل التّاريخ بسبع وعشرين سنة، وقبل مبعث النبيّ بعشر سنين، وولدت ولأبيها الصدّيق، يوم وُلدت، وله أحد وعشرون سنة. توفّيت أسماء سنة ثلاث وسبعين بمكّة».[12]

- توفّيت أسماء بنت أبي بكر الصدّيق بعد مقتل ابنها عبد الله بن الزّبير سنة 73ه/692م، وقد بلغت من العمر 100 سنة كاملة؛ هذا ما يذكره المؤرّخون بلا خلاف، وبذلك تكون أسماء ولدت عام 592م.

وحسب قول المؤرّخين: فإنّ أسماء وُلدت قبل الهجرة للمدينة بـ 27 عامًا، وحيث أُرّخت الهجرة بسنة 622م، تكون قد وُلدت: 27-622 = 595م، وفارق 3 سنين لا يُعتبر، وله تفسيرات عدّة.

استنتاج: وُلدت أسماء بنت أبي بكر بين 592 و595م.

فهل يتّفق هذا مع قول أبي نعيم الحافظ الأصبهاني؟ «وُلدت أسماء قبل التأريخ بسبع وعشرين سنة وقبل مبعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعشر سنين، وولدت ولأبيها الصّديق، يوم ولدت، أحد وعشرين سنة».[13]

- قوله: «قبل التأريخ بسبع وعشرين سنة» يعني قبل الهجرة، وعلى هذا يكون مولد أسماء في (-622 27= 595م!).

---

11 - تقي الدين المقريزي (ت: 845هـ) إمتاع الأسماع، تحقيق: محمّد عبد الحميد النّميسي، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1420هـ، 1999م. 6/203.

12 - ابن عساكر، تاريخ دمشق، 69/9. سبق ذكره.

13 - أبو نعيم الأصبهاني (ت: 430هـ) معرفة الصّحابة، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الطبعة: الأولى، الرياض، 1419هـ -1998م. 6/3253.

- قوله «قبل مبعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعشر سنين» يعطي: (610 10-= 600م) إلاّ أن يكون مبعث النبيّ وقع عام 605م.

وماذا يعطي قوله: «وُلدت ولأبيها الصدّيق يوم ولدت أحد وعشرين سنة»؟ (592–21= 571م)، (595 – 21 = 574م)، فيكون أبو بكر وُلد بين 571 و574م.

هذا لا يتّفق أبدًا مع الفارق العمريّ بينه وبين الرّسول؛ لذلك نحتفظ بافتراضنا بأنّه ولد بين 566 و569م.

ولعلّ الجديد؛ هو أنّ أبا بكر تزوّج وهو في السّابعة عشرة من عمره، على ما يبدو، إذا وُلدت أسماء وهو في العشرين.

جدول توضيحيّ:

مولد أبي بكر	566م	567م	568م	569م
زواجه وهو في 17	583م	584م	585م	586م
مولد عبد الله	584م	585م	589م	587م
مولد أسماء	586م	587م	588م	58 م

عبد الرّحمن بن أبي بكر:

تستدعي حالة عبد الرّحمن بن أبي بكر التوقّف عندها: متى وُلد وهل هو شقيق عائشة أم لا؟

- «عبد الرّحمن بن أبي بكر الصدّيق وأمّه أمّ رومان بنت الحارث، توفّي سنة ثلاث وخمسين، وكان أسنّ ولد أبي بكر، كان عبد الرّحمن بن أبي بكر يشبّب (يتغزّل) بجارية في الجاهلية».[14]

- «عبد الرّحمن بن أبي بكر الصدّيق، شقيق أمّ المؤمنين عائشة، حضر بدرًا مشركًا، ثمّ أسلم قبل الفتح وهاجر، وكان أسنّ ولد أبي بكر، ومات سنة ثلاث وخمسين».[15]

لا يمكن الجمع ولا التّوفيق بين قول «عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وأمّه أمّ رومان» وقول «شقيق أمّ المؤمنين عائشة» من جهة، وبين الإقرار: «وكان أسنّ ولد أبي بكر» من جهة أخرى. (الأسنّ هو البكر

14 - ابن عساكر، تاريخ دمشق، 35/32. سبق ذكره.

15 - الذّهبي (ت: 748هـ) تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، تحقيق: بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، 2003م.2/520.

ولدًا كان أو بنتًا) ويثبت المؤرّخون أنّ أوّل مولود لأبي بكر هو عبد الله من زوجته الأولى قتيلة، وقد توفّي عبد الله بن أبي بكر سنة 11ه، فتكون أسماء هي: «أسنّ ولد أبي بكر» الأحياء.

قال **الصّفدي**: «عبد الرّحمن بن عبد الله بن عثمان؛ هو ابن أبي بكر الصدّيق. يقال إنّه شقيق عائشة».[16]

لا يجزم الصفديّ بأنّ عبد الرّحمن شقيق عائشة، بل هو يشكّ في ذلك، لماذا يرفض أمرًا أو يشكّك فيه وقد أجمع عليه المؤرّخون: «عبد الرّحمن بن أبي بكر الصّديق أمّه أمّ رومان، وهو شقيق أمّ المؤمنين عائشة» وقد صرّحت عائشة بذلك مرارًا؟

السّبب: «كان عبد الرّحمن بن أبي بكر يشبّب (يتغزّل) بجارية في الجاهلية»؛ أي إنّه تجاوز الخامسة عشرة وقارب العشرين من عمره قبل الإسلام، وحضر بدراً مشركاً (شهد بدرًا وأُحدًا مع الكفّار) وقد تقدّم وطلب المبارزة، فهبّ أبوه ليبارزه، فمنعه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قائلًا: «متّعني بنفسك».[17]

هذا يعني أنّ عمر عبد الرّحمن في غزوة أحد لا يقلّ عن 25 سنة، إن لم يكن 30.

ومعلوم أنّ غزوة أحد حدثت في شوّال سنة 3ه/624م: «ذَكَرَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ مَنْدَهْ حِكَايَةً عَنِ ابْنِ أَبِي الزِّنَادِ، أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ أَكْبَرَ مِنْ عَائِشَةَ بِعَشْرِ سِنِينَ. قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ: وَإِسْلَامُ أُمِّ أَسْمَاءَ تَأَخَّرَ، قَالَتْ أَسْمَاءُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فِي حَدِيثٍ ذَكَرَتْهُ، وَهِيَ قُتَيْلَةُ مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ حِسْلٍ، وَلَيْسَتْ بِأُمِّ عَائِشَةَ، فَكَانَ إِسْلَامُ أَسْمَاءَ بِإِسْلَامِ أَبِيهَا دُونَ أُمِّهَا، وَأَمَّا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ فَكَأَنَّهُ كَانَ بَالِغًا حِينَ أَسْلَمَ أَبَوَاهُ، فَلَمْ يَتْبَعْهُمَا فِي الْإِسْلَامِ حَتَّى أَسْلَمَ بَعْدَ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ، وَكَانَ أَسَنَّ أَوْلَادِ أَبِي بَكْرٍ».[18]

في تحديد تاريخ ولادة عبد الرّحمن بن أبي بكر:

الافتراض الأوّل: «كان عبد الرّحمن بن أبي بكر يشبّب بجارية في الجاهليّة». نفترض ذلك سنة واحدة قبل بدء الوحي أي 609م. ونفترض عمره آنذاك 20 سنة: 609 – 20= 589م.

الافتراض الثّاني: «كان بالغًا حين أسلم أبواه». أسلم أبواه عام 612م، ونفترض أنّ عمره كان 17 سنة، 612-17 =595م.

16 - الصّفدي، الوافي بالوفيات، 18/95. سبق ذكره.

17 - الصّفدي، الوافي بالوفيات، المرجع السّابق، 18/95.

18 - البيهقي (ت: 458هـ)، السّنن الكبرى، تحقيق: محمّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة: الثالثة، 1424هـ. 2003م. 6/335.

الافتراض الثّالث: «شهد بدرًا وأحدًا مشركًا مع الكفّار» وقعت معركة أُحد سنة 3ه/624م، لعلّه كان في الثّلاثين: (624 – 30 = 594م).

فحسب تلك الافتراضات يكون عبد الرّحمن بن أبي بكر وُلد بين 589م و594م، فهل يتّفق ذلك مع الجدول السّابق؟ وُلد عبد الرّحمن بعد أسماء، فإن كان شقيقًا لها ولعبد الله فيكون وُلد بين 587م و590م. وإن كانت أمّه هي أمّ رومان زوجة أبي بكر الثّانية، فهذا يعني أنّ أبا بكر طلّق وتزوّج بعد أشهر قليلة من ولادة أسماء. وهذا ملخّص تلك التّواريخ والافتراضات ضمن الجدول الآتي:

مولد أبي بكر	566م	567م	568م	569م
زواجه وهو في 17	583م	584م	585م	586م
مولد عبد الله	584م	585م	589م	587م
مولد أسماء	586م	587م	588م	589م
مولد عبد الرّحمن	587م	588م	589م	590م

وعائشة متى ولدت؟

نعود إلى الكاتبة الفرنسيّة: «كانت أمّ رومان زوجته الحبيبة، امرأة ذات جمال فائق، جسم كغصن البان وبشرة كالحرير، بيضاء كالحليب، عينان سوداوان، شعر من ذهب في لون النّحاس يلتهب كمجمرة. منذ هذا الصّباح كان يرتعش من الخوف؛ هل كان الوضع امتحانًا قاسيًا إلى هذا الحدّ؟».[19]

سطران آخران يبرزان الأسلوب القصصيّ «الدراميّ» الّذي انتهجته الكاتبة الفرنسيّة؛ لقد عرفت الصّفات الجسديّة لأمّ رومان، وأسقطت عليها صعوبة الوضع إلى حدّ أنّها وضعت أبا بكر بين اختيارين: «تفتح القابلة بطن أمّ رومان ليحيى الصّغير أو يموت الاثنان»! ألم تقل الكاتبة من قبل أنّ قتيلة ماتت في النّفاس؟ كلّ ذلك بمحض خيالها المنحرف؛ إذ لم تر أنّ زواج عائشة هو تكرار لحديث الإفك في خصوص النبيّ هذه المرّة.

كتاب جنفياف شوفل (Geneviève Chauvel) سمّ في الدّسم، لامحالة، ومن أسوأ ما كتب عن تاريخنا عمومًا وعن الصّحابة وعن النبيّ وعائشة، ولكنّها لم تفعل شيئًا غير الرّجوع إلى المصادر والمراجع العربيّة

19 - Aïcha, la bien-aimée du Prophète .Télémaque ,Paris 2007 . page 85. Geneviève Chauvel,

(Oum Roumane était son épouse bien-aimée, une femme d'une grande beauté. Un corps de liane, une peau de soie, blanche comme le lait, des yeux de jais, des cheveux d'or cuivré, rougeoyant comme un brasier. Depuis le matin, il tremblait de peur. L'enfantement était-il une épreuve si cruelle ?)

المعترف بها، وانتقت وصاغت وألّفت، لتخرج قصّة حبّ كما تخرجها المسلسلات في هوليود أو المكسيك أو تركيا.[20]

لنستمع إلى كاتب عربي معاصر يعالج موضوع زواج عائشة وفق منهج تقديس الرّوايات والحديث عن الإسلام بصورة خاطئة: «تحديد سنّ عائشة رضي الله عنها حين عقد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عليها بستّ سنين، وحين بنى بها بتسع سنين لم يكن اجتهادًا للعلماء حتّى ينظر في صوابه من خطئه، وإنّما هو نقل تاريخيّ ثبت بما يؤكّد صحّته وضرورة التسليم به!».[21]

وختم المقال بقوله: «وانظر في حكمة زواج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من عائشة رغم فارق السنّ»!!

ليس في زواج النبيّ من عائشة أو من غيرها أيّة حكمة، إذا كانت في التّاسعة من عمرها، بل إنّ تصديقه هو التّكذيب بحكمة النبيّ، وتحديد سنّ عائشة حين خطبها النبيّ وحين دخل بها أبعد ما يكون عن وصفه بأنّه «نقل تاريخيّ ثبت»؛ إذ لو كان كذلك لما اختلف فيه أصحاب التّاريخ والسّير وأهل الحديث أنفسهم، ولم يورد الكاتب في مقاله وجهًا واحدًا يمكن إثباته أو الاطمئنان به، وإنّما تشبّث برواية واهية واحدة، وأراد فرضها على التّاريخ وعلى المسلمين والنّاس أجمعين.

ليست القضيّة فيما ورد في كتب التّاريخ والحديث من أنّ الرّسول بنى بعائشة وهي في التّاسعة من العمر؛ القضيّة أبعد من ذلك وأعمق وأخطر يمكن أن نعرضها في صيغة أسئلة:

- هل كان العرب عمومًا وقريش خصوصًا يزوّجون بناتهم في تلك السنّ؟

الجواب: كلاّ. قد يحدث ذلك لأسباب اقتصاديّة واجتماعيّة أو لتحالفات عائليّة في بعض البوادي، ولكنّه شاذّ شذوذ الرّمل في القطب الجنوبيّ.

- هل كان أبو بكر يقبل أنّ يزوّج ابنته في ذلك العمر؟

الجواب: كلاّ. كلّ ظروفه الماديّة وعقله وثقافته ودينه، كلّ ذلك يمنعه من ذلك. ولو كان الزّوج هو أعزّ أصدقائه عليه وهو رسول الله.

- هل كانت أمّ رومان تقبل بذلك؟

---

20 - المرجع نفسه. ص 86. وقد صدّر ذلك الكتاب وقدّم له شخصيّة إسلاميّة لها وزنها في فرنسا والعالم العربيّ مرحّبا بالكتاب وكأنّه «المنقذ من الهوان». فالعجب أن يكون «شيخ المسلمين» في باريس صدّر ذلك الكتاب في امتداح الكاتبة وبيان فضلها على الإسلام وتراثه.

21 - إحسان العتيبي، تحقيق في عمر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما تزوّجها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. دار طيبة للنشر، جدة، 2006م. ص 12.

الجواب: كلاّ. لأنّها امرأة لها ابن وبنت وليس لها غيرهما، ولأنّها ليست في فاقة، فلا سبب لديها للتخلّص من ابنتها الوحيدة في ذلك العمر.

- هل كان محمّد بن عبد الله رسول الله وخاتم أنبيائه يتزوّج من طفلة في التّاسعة؟

الجواب: كلاّ وألف كلاّ!

لقد تزوّج محمّد بن عبد الله وهو في الخامسة والعشرين من عمره بامرأة تكبره سنّا بين 5 و15 عاما، حسب ما رُوي، وقد تزوّجت قبله وأنجبت لغيره، حسب ما رُوي أيضًا.

لقد توفّيت أمّ المؤمنين خديجة، فما منع النبيّ أن يتزوّج بعدها طفلة في التّاسعة؟ أم هل كانت عائشة أجملهنّ في ذلك العمر؟ أم أنّ النبيّ لم يلاحظها؟

لقد تزوّج ثانية، لا محالة، السيّدة «سودة بنت زمعة العامرية» وقد كانت ترمّلت وهي عجوز، ويئست من الزّواج لتقدّمها في السنّ، وليس بها ما يرغّب الرّجال والخطّاب.

معطيات تاريخيّة:

قال الطّبري في تاريخه: «تزوّج أبو بكر في الجاهليّة قتيلة فولدت له عبد الله وأسماء، وتزوّج أيضًا في الجاهلية أمّ رومان فولدت له عبد الرّحمن وعائشة، فكلّ هؤلاء الأربعة من أولاده، ولدوا من زوجتيه اللّتين سمّيناهما في الجاهليّة».[22]

فحسب الطبريّ، وُلدت عائشة في الجاهليّة. وحسب رواية عبد الرّحمن بن أبي الزّناد: فإنّ أسماء كانت أكبر من عائشة بعشر سنوات.[23]

لا خلاف في أنّ عائشة وُلدت في الجاهليّة، أي قبل نزول الوحي، بحيث يكون ميلادها قبل سنة: 610 ميلادية. وعائشة نفسها تقرّ بهذا الأمر.

فلنلخّص تلك التّواريخ والافتراضات وفق الجدول الآتي:

22 - أبو جعفر الطبري (ت: 310هـ) تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، (ت: 369هـ) دار التراث، الطبعة: الثانية، بيروت، 1387هـ .3/425.

23 - الذّهبي (ت: 748هـ) سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، 1427هـ، 2006م.3/521.

مولد أبي بكر	566م	567م	568م	569م
زواجه وهو في 17	583م	584م	585م	586م
مولد عبد الله	584م	585م	589م	587م
مولد أسماء	586م	587م	588م	589م
مولد عبد الرّحمن	587م	588م	589م	590م
مولد عائشة	596م	597م	598م	599م

سائس الفيل:

«سائس الفيل» اسمه «أنيس» كما ذكره أصحاب السّيرة والتّفاسير. قال ابن كثير في تفسيره: «وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه، ليقهر الفيل على دخول الحرم».[24]

فلا خلاف عند المؤرّخين المسلمين أنّ «أنيسًا سائس الفيل» جاء مع أبرهة من اليمن، وأنّ الله عزّ وجلّ أرسل على أصحاب الفيل طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجّيل فجعل ذلك القوم كعصف مأكول.

قال شهاب الدين **الألوسي** (ت: 1270هـ): «إنّ سائس الفيل وقائده تخلّفا في مكّة فسلما. فعن عائشة أنّها قالت: أدركتُ قائد الفيل وسائسه بمكّة أعميين مقعدين يستطعمان النّاس».[25]

أمّا شمس الدّين، **الشّربيني** (ت: 977هـ) فينسب في تفسيره «السّراج المنير» الكلام نفسه إلى الصحابيّ عتّاب بن أسيد: «قيل: لم يكن بمكّة أحد إلاّ رأى قائد الفيل وسائسه أعميين يتكفّفان النّاس، لأنّ عائشة مع صغر سنّها رأتهما».[26]

لا! ليس «مع صغر سنّها» إن رأتهما عائشة وعقلتهما وتذكّرتهما فيكون عمرها بين 8 و10 سنوات، ويكون ذلك قبل أن يخطبها النبيّ؛ وعلى هذا، يصعب القَبول بأن تكون عائشة «من مواليد الإسلام».

وإذا تتبّعنا سير الرّوايات والأقوال التاريخية، بغضّ النّظر عن الصحّة والصّواب، فإنّ «عام الفيل» أرُّخ بسنة 571م. وإذا اعتبرنا أنّ عائشة «رأت سائس الفيل» وعمرها بين 8 و10 سنوات لتستطيع أن تتذكّره وتعقل الأحداث والتّواريخ، فإنّنا نحصل على الافتراضات الآتية:

24 - أبو الفداء إسماعيل (ت: 774هـ) تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمّد علي بيضون، الطبعة: الأولى، بيروت، 1419هـ.8/461.

25 - شهاب الدين الألوسي (ت: 1270هـ) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، بيروت، 1415هـ.15/467.

26 - شمس الدّين، الشّربيني (ت: 977هـ) السّراج المنير، مطبعة بولاق الأميرية، القاهرة، 1285هـ.4/490.

مولد عائشة	596م	597م	598م	599م
عمرها 8 سنوات	604م	605م	606م	607م
عمرها 10 سنوات	606م	607م	608م	610م

مدلول قول عائشة: «لم أعقل أبويّ إلاّ وهما يدينان الدّين»

لئن كان أبو بكر ثاني رجل يؤمن بعد محمّد بن عبد الله، فإنّه آمن بعد السيّدة خديجة أمّ المؤمنين. وإذ أرُّخ بدء الوحي بسنة 611/610م، فإنّ إسلام أبي بكر يكون سنة 612م إن كان الرّسول أعلم صديقه بنبوّته أو بعدها بقليل.

ومتى يعقل طفل الدّين ويفرّق بين الشّرك والإسلام، ويدرك أنّ أبويه مسلمان؟ لا يكون ذلك قبل العاشرة من عمره، بشرط أن يكون أحد والديه نبّهه ومرّنه على ذلك. وإذا افترضنا أنّ هذا حصل لعائشة، فقولها السّابق دليل على أنّها ليست من مواليد الإسلام، وإن ولدت سنة 610م، فتكون قد «عقلت أبويها وهما يدينان الدّين» سنة 620م (سنتان قبل الهجرة) وعمرها عشر سنوات، وهو التّاريخ المفترض لخطبتها من قبل الرّسول، فيصعب أن يكون زواجها وهي في التّاسعة.

ما هي ظروف «حديث عائشة» هذا؟

أورد ابن حجر في فتح الباري رواية عائشة مفصّلة كما يأتي: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَفَيْ النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا قِبَلَ الْحَبَشَةِ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الْغِمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ وَهُوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الْأَرْضِ فَأَعْبُدَ رَبِّي. قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: إِنَّ مِثْلَكَ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ، فَإِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ فَارْجِعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلَادِكَ. فَطَفِقَ أَبُو بَكْرٍ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ وَلَا يَسْتَعْلِنُ بِالصَّلَاةِ وَلَا الْقِرَاءَةِ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ. قَالَتْ عَائِشَةُ فَأَتَى ابْنُ الدَّغِنَةِ أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ وَأَرْضَى بِجِوَارِ اللَّهِ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ».[27]

تندرج هذه الرّواية ضمن الحديث عن الدّعوة المحمّديّة في السنوات الخمس الأولى، وعن ظروفها وما لحق المؤمنين الأوائل من أذى ومحاصرة وتعذيب من قبل قريش، وفي سياقها يصرّح أبو بكر: «أَخْرَجَنِي

27 - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار المعرفة، بيروت، 1379هـ.7/232.

قَوْمِي» ويذكر عزمه على الهجرة إلى الحبشة كما هاجر بعض المؤمنين والمؤمنات من قبل. والمؤكّد أن هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة، إجماعًا بين كتب التّاريخ، كانت في السّنة الخامسة من بدء البعثة النبويّة، أي حوالي عام 615م. فإذا كانت عائشة من «مواليد الإسلام» فإنّ عمرها لا يمكن أن يتجاوز ثلاث سنين، فهل تعقل طفلة في ذلك العمر كلّ تلك الأحداث فتسجّلها ذاكرتها؟

ولنفترض، جدلًا، أنّ «حادثة ابن الدغنّة» مع أبي بكر وقعت في السّنة الأخيرة من الدّعوة في مكّة، قبل الهجرة، وأنّ عائشة وُلدت عامَ بدءِ الوحيَ، فإنّ عمرها يكون حسب الأقوال في مدّة تلك المرحلة: 10 أو 13 أو 15 سنة. وإذا أخذنا بهذا الافتراض، ومهما كان عمرها، فإنّ الرّسول لم يخطب عائشة في ذلك الوقت، لأنّ عائشة لا تذكر خطبتها في الرّواية، وكيف لا تذكرها وقد ورد قولها في الرّواية: «ولم يمرّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله طرفي النّهار بكرة وعشيّة»؟

وممّا يؤكّد أنّ تلك الحادثة كانت بين السّنة الرّابعة والسّنة السّادسة من بدء الوحي قولها: «فلمّا ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرًا قِبَل الحبشة». وأبو بكر لم يهاجر إلى الحبشة!

عَن عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: «وَاللَّهِ مَا عَقَلْتُ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلاَّ يَدِينَانِ الدِّينَ وَمَا مَرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ قَطُّ إِلاَّ يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم بُكْرَةً وَعَشِيًّا. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ في الصَّحِيحِ عَنْ يَحْيَى بْنِ بُكَيْرٍ. قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَعَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وُلِدَتْ عَلَى الإِسْلاَمِ لأَنَّ أَبَاهَا أَسْلَمَ في ابْتِدَاءِ الْمَبْعَثِ وَثَابِتٌ عَنِ الأَسْوَدِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم تَزَوَّجَهَا وَهِيَ ابْنَةُ سِتٍّ وَبَنَى بِهَا وَهِيَ ابْنَةُ تِسْعٍ، وَمَاتَ عَنْهَا وَهِيَ ابْنَةُ ثَمَانَ عَشْرَةَ، لَكِنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ وُلِدَتْ في الْجَاهِلِيَّةِ ثُمَّ أَسْلَمَتْ بِإِسْلاَمِ أَبِيهَا».[28]

نهتمّ بالتّعليق على الرّواية لأنّ الكاتب اعتمد ما ورد في نصّ البيهقيّ وشوّهه وحرّفه: «يقول الإمام البيهقي رحمه الله في تعليقه على حديث: لم أعقل أبويّ قطّ إلاّ وهما يدينان الدّين، وعائشة رضي الله عنها وُلدت على الإسلام لأنّ أباها أسلم في ابتداء المبعث».

ليس التّعليق من كلام البيهقيّ بما أنّه نقل كلام أحمد بن حنبل، والغاية من التّعليق هي الاحتجاج لمقولة: «وُلِدَتْ عائشة عَلَى الإِسْلاَمِ». والحجّة الأولى: «لأَنَّ أَبَاهَا أَسْلَمَ في ابْتِدَاءِ الْمَبْعَثِ»، لا دليل فيها؛ إذ لا رابط منطقيّ بين تاريخ إسلام أبي بكر وتاريخ ولادة ابنته عائشة، ولو افترضنا أنّ عائشة كانت البكر لما غيّر ذلك من الأمر شيئا. والحجّة الثانية: «وَثَابِتٌ عَنِ الأَسْوَدِ عَنْ عَائِشَةَ» هي أساس النّقاش ومدار الجدل لأنّها لم تثبت ولا يمكن أن تثبت، والاستقراء التاريخيّ المنطقيّ أصدق من كلّ الرواة والإخباريين والمحدّثين.

28 - البيهقي، السّنن الكبرى، 6/204. سبق ذكره.

«وأمّا عبد الرّحمن بن أبي بكر فكأنّه كان بالغًا حين أسلم أبواه، فلم يتبعهما في الإسلام حتّى أسلم بعد مدّة طويلة وكان أسنّ أولاد أبي بكر. انتهى باختصار. عن السّنن الكبرى (203/6)».[29]

هذا الكلام لم يرد في السّنن الكبرى للبيهقي، ولم يكن عبد الرّحمن «أسنّ أولاد أبي بكر» بأيّ وجه من الوجوه والقول فيه افتراء وتحريف.

استنتاج: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَفَيْ النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا قِبَلَ الْحَبَشَةِ». هذا كلام مرويّ عن عائشة، عن هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة، التي كانت في السّنة الخامسة من بدء البعثة النبويّة (أي بين عامي 613 و615م)، وقد أزمع أبو بكر على الهجرة فلقيه ابن الدغنة فقال له: مثلك لا يخرج ولا يُخرج، ورجع به إلى مكّة وأجاره من قريش.

كم يكون عمر عائشة حتّى تتذكّر كلّ تلك الأحداث والجزئيّات؟ إذا افترضنا أنّ عمرها آنذاك بين 10 و13 سنة تكون ولدت: (613 – 10 = 603م) (613 – 8 = 605م) أو (615 – 10 = 605م) (615 – 8 = 607م).

كلّ هذا لا يستقيم لأنّ عائشة وُلدت في الجاهليّة. فلا بدّ أنّها كانت أكبر في العمر من ذلك.

قال الزّبير بن بكّار (ت: 256هـ): «توفّيت عائشة ليلة الثّلاثاء لسبع عشرة مضت من شهر رمضان بعد الوتر سنة ثمان وخمسين (677م)».[30]

أمّا **الذّهبي** فذكر تاريخين بفارق سنة كاملة: «توفّيت (أمّ المؤمنين عائشة) سنة سبع وخمسين. وقال أبو عبيدة معمر بن المثنّى، والواقدي، وغيرهما: سنة ثمان وخمسين، ومدّة عمرها ثلاث وستّون سنة وأشهر».[31]

ادّعاء المؤرّخين: «هي أصغر من فاطمة بثماني سنين»

لم نجد من ذكر هذا «التّدقيق» غير الذّهبي في «سير أعلام النّبلاء» وهو نفسه لم يذكره في أيّ كتاب من كتبه الأخرى، على غير عادته، فقول الذهبيّ هذا لا سند له ولا مبرّر، وإنّما هو مجرّد اجتهاد منه، ومولد فاطمة الزّهراء مختلف فيه، فأيّ قول اعتمد الذهبيّ ليجعل ذلك الفارق؟ بل لماذا لم يذكر تاريخ ولادة عائشة في أيّ من كتبه؟

29 - إحسان العتيبي، حول سنّ زواج عائشة، ص13. سبق ذكره.

30 - الزّبير بن بكار (ت: 256هـ) المنتخب من كتاب أزواج النبيّ. تحقيق: سكينة الشّهابي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، بيروت، 1403هـ. 1/35.

31 - الذّهبي، سير أعلام النّبلاء، 3/462. سبق ذكره.

تعرّض **ابن حجر** إلى الاختلاف في تحديد مولد فاطمة، فقال: «واختلف في سنة مولدها. فروى الواقدي عن طريق أبي جعفر الباقر قال: قال العبّاس: ولدت فاطمة والكعبة تُبنى والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم ابن خمس وثلاثين سنة، وبهذا جزم المدائني. ونقل أبو عمر عن عبيد الله بن محمّد بن سليمان بن جعفر الهاشمي أنها ولدت سنة إحدى وأربعين من مولد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكان مولدها قبل البعثة بقليل نحو سنة أو أكثر. وهي أسنّ من عائشة بنحو خمس سنين».[32]

ونطرح السّؤال نفسه: من أين لابن حجر أنّ «فاطمة الزّهراء أسنّ من عائشة بنحو خمس سنين»؟ بل الأقرب أنّ عائشة أسنّ من فاطمة.

اتّفق على أنّ فاطمة توفّيت: «سنة إحدى عشرة (11ه/632م)». واختلف في تاريخ ولادتها فبلغ الفارق في عمرها، على اعتبار الفرق بين الرّوايات، عشر سنين أو أكثر بقليل.

وذكر في تاريخ ولادتها ثلاثة أقوال:

أوّلا: «قبل البعثة النبويّة بخمس سنين، ولدت وقريش تبني البيت» وهو القول المعتمد عند أهل السنّة.

ثانيًا: «ولدت وعمر النبيّ إحدى وأربعون عاماً، أي بعد سنة من البعثة النبويّة، وهذا قول ابن عبد البرّ في «الاستيعاب» والحاكم في «المستدرك».

ثالثا: «ولدت بعد البعثة بخمس سنوات في شهر جمادى الآخرة» وهذا عند علماء الشيعة ومؤرخيهم، مثل: المجلسي والطّبرسي والكُليني والإربللي والنّيسابوري والشّيخ الصدوق.

نلخّص ذلك في الجدول الآتي:

المولد النبويّ (عام الفيل = 571م) - بدء نزول الوحي= 611م			
(أ) قبل البعثة النبويّة بخمس سنين = 606م			
(ب) عمر النبيّ إحدى وأربعون عاماً = 612م			
(ج) بعد البعثة بخمس سنوات = 616م			
مولد فاطمة	أ) = 606م	ب) = 612م	ج) = 616م
عمرها عند وفاتها (632م)	26 سنة	20 سنة	16 سنة

32 - ابن حجر العسقلاني (ت: 852هـ) الإصابة في تمييز الصّحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، بيروت، 1415هـ.8/263.

إن أخذنا بالافتراض القائل: إنّ الرّسول تزوّج خديجة «في الخامسة والعشرين» أي 571 + 25 = 596م، فهذا يعني أنّ فاطمة ولدت بعد عشر سنوات على الأقلّ وبعد عشرين سنة على الأكثر، حسب الجدول السّابق! وإذا افترضنا أنّ فاطمة ولدت بعد سنتين من الزّواج أي سنة 598م، فتكون ولدت في السّنة نفسها التي ولدت فيها عائشة تقريبًا، وكلّ هذا ينفي أن تكون فاطمة أسنّ من عائشة.

متى أسلمت عائشة؟

«ثُمَّ أَسْلَمَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ فَلَمَّا أَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ، وَدَعَا إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، فَأَسْلَمَ بِدُعَائِهِ، فِيمَا بَلَغَنِي، عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَأَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ وَعَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، وَهِيَ يَوْمئِذٍ صَغِيرَةٌ، وَخَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ».[33]

لا نعتقد أنّ أبا بكر أسلم في سنة الوحي الأولى 611م، ولا ندري هل أنّ النبيّ أسرّ إلى صديقه بالحدث العظيم قبل أن يأمره الله بالجهر بالدّعوة: «وأنذر عشيرتك الأقربين»؟ ونفترض أنّ أبا بكر إن أسلم قبل الجهر بالدّعوة، ما كان ليخبر زوجته وأبناءه، وإن كان بعد الجهر بالدّعوة فيصحّ قول ابن هشام: «فَلَمَّا أَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ، وَدَعَا إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ».

بقي أن نفهم ما معنى قول ابن هشام عن عائشة: «وَهِيَ يَوْمئِذٍ صَغِيرَةٌ» عندما أسلمت. نأخذ بما «اتّفق عليه» من أنّ الدّعوة السريّة دامت ثلاث سنوات، فإسلام أسماء وعائشة كان بعد إسلام أبيهما، وهذا ينصّ عليه ابن هشام في استعمال «ثمّ» وفي جعله أسماء وعائشة آخر القائمة، وقد يفسّر التأخير بأنّ أبا بكر أسلم في نهاية سنة 611 أو في 612 أو 613م، ولم تسلم أسماء وعائشة قبل الجهر بالدّعوة أي سنة 614م.

افتراض أنّ أسماء وعائشة أسلمتا سنة 614م				
مولد أسماء	586م	587م	588م	589م
عمرها عندما أسلمت	28س	27س	26س	25 س
مولد عائشة	596م	597م	598م	599م
عمرها عندما أسلمت	18 سنة	17 سنة	16 سنة	15 سنة

هل حقّا كان عمر عائشة «63 سنة وأشهر»؟

نلاحظ أنّ عمر «ثلاثًا وستّين» جُعل للنبيّ ولأبي بكر وعمر وعليّ وعائشة، وليس للمؤرّخين والمحدّثين أيّ مرجع سوى المماثلة بين سنّ النبيّ وسنّ ثلّة من الصّحابة، فلماذا حُصر عمر عائشة في 63 سنة؟

33 - ابن هشام (ت: 213هـ) السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطبعة: الثانية، القاهرة، 1375هـ، 1955م.1/249.

«توفّيت أمّ المؤمنين عائشة سنة 58ه/677م، وعمرها 63 سنة». أي إنّها ولدت عام 614م، فيكون زواجها من الرّسول، أي خطبتها، عام 620م وهي في السّادسة، ويكون البناء بها وهي بنت تسع عام 623م. ليس لهذا الإفك دليل واحد سوى رواية عروة بن الزّبير التي كرّرها ابن إسحاق والبخاري ومسلم وغيرهم بدون سند تاريخي: «عن هشام بن عروة عن أبيه قال: تزوّج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عائشة بعد موت خديجة بثلاث سنين، وعائشة يومئذ ابنة ستّ سنين، وبنى بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهي ابنة تسع سنين، ومات رسول الله صلى الله عليه وسلّم وعائشة ابنة ثماني عشرة سنة».[34]

نستنتج أنّ إخباريين وأصحاب سير ومحدّثين ومؤرّخين منذ القرن الثّاني الهجريّ، طوّعوا التّاريخ لمجرّد تصديق رواية يونس عن «هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزّبير بن العوّام» أو غيرهما. والأغرب أن يتشبّث اليوم باحثون ومؤرّخون وعلماء بذلك الإفك، لمجرّد أنّه ورد فيما يسمّى «الصّحاح» كما نستنتج أنّ أمّ المؤمنين عائشة توفّيت سنة: 58ه/677م، فيكون عمرها بين 78 سنة و81 سنة.

لم يخطب النبيّ عائشة قطّ

يبدو هذا الإقرار استفزازيًّا ومناقضًا لما أجمع عليه الرواة، فقد ثبتت خطبة النبيّ لعائشة بنت أبي بكر في كثير من المصادر والمراجع السنيّة والشيعيّة، فما الدّاعي إلى هذا «الخروج» والاستفزاز؟ لننظر أوّلا في بعض الرّوايات:

رواية ابن سعد:

«عن عبد الله بن أبي ملكية قال: خطب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عائشة بنت أبي بكر الصدّيق فقال: إنّي كنت أعطيتها مطعمًا لابنه جبير، فدعني حتّى أسلّها منهم، فاستسلّها منهم فطلّقها فتزوّجها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم».[35]

رواية ابن عبد البرّ:

«كانت تذكر لجبير بْن مطعم وتسمّى له، وَكَانَ رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أري عائشة فِي المنام فِي سرقة من حرير، فتوفّيت خديجة، فَقَالَ: إن يكن هَذَا من عند اللَّه يمضه. فتزوّجها بعد موت خديجة بثلاث سنين، فِيمَا ذكر الزُّبَيْر، وَكَانَ موت خديجة قبل مخرجه إِلَى المدينة مهاجرًا بثلاث سنين».[36]

---

34 - محمّد بن إسحاق (ت: 151هـ) السّير والمغازي، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، الطبعة: الأولى، بيروت، 1398هـ /1978م.1/255.

35 - ابن سعد (ت: 230هـ) الطّبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، الطبعة: الأولى، بيروت، 1968م. 8/59.

36 - ابن عبد البرّ (ت: 463هـ) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، الطبعة: الأولى، بيروت، 1412هـ/ 1992م، 4/1881.

رواية ابن حجر:

«كانت تذكر لجبير بن مطعم وتسمّى له. قلت أخرجه بن سعد من حديث بن عبّاس بسند فيه الكلبي، وأخرجه أيضًا عن ابن نمير عن ابن أبي مليكة، قال: قال أبو بكر: كنت أعطيتها مطعّمًا لابنه جبير، فدعني حتّى أسلّها منهم فاستسلّها».[37]

لا يفيد غمز ابن حجر ولمزه في الرّواية فقد ثبت، كما يقولون، أنّ عائشة بنت أبي بكر خطبها مطعم لابنه جبير، فالسّؤال: متى حدث ذلك؟

هي عادة بشريّة لم تنقطع بعد بين الأهل والأصدقاء وأصحاب المال والسّلطان؛ يحدث كثيرًا أنّ «تسمّى» طفلة لطفل أو لشابّ، وندر أن تحدث التّسمية عند ولادة الطّفلة أو في طفولتها الأولى، فالأكثر أن تكون الطّفلة بلغت السّادسة أو تجاوزتها، والخبر المروي هو أنّ عائشة بنت أبي بكر سمّيت لجبير بن مطعم أي أنّ مطعمًا خطب أبا بكر في ابنته عائشة لابنه جبير.

ومطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف من سادات قريش، وكان رئيس بني نوفل في الجاهليّة، وقائدهم في الحرب، وهو الّذى أجار الرّسول لمّا انصرف عن أهل الطّائف، وهو الذي أجار سعد بن عبادة وقد دخل مكّة معتمرًا، وكان أحد الّذين مزّقوا الصّحيفة التّي كتبتها قريش على بني هاشم، مات في السنة الثانية للهجرة قبل غزوة بدر ولم يسلم.[38]

فالظّاهر أنّ أبا بكر ومطعم بن عديّ كانا على صلة وثيقة، ولا غرابة في هذا، والظاهر أيضًا أنّ جبير بن مطعم كان تلميذ أبي بكر، ولعلّ عائشة وجبيرًا كانا في نفس العمر أو متقاربين.

أمّا جبير بن مطعم: «فكان من علماء النسب وقدم على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في فداء أسارى بدر فسمعه يقرأ الطّور، قال: فكان ذلك أوّل ما دخل الإيمان في قلبي. وقال له النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: لو كان أبوك حيًّا وكلّمني فيهم لوهبتهم له. وكان أنسب قريش لقريش والعرب قاطبة. وقال جبير: أخذت النّسب عن أبي بكر الصدّيق. مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين».[39]

والسّؤال: متى طلب مطعم بن عديّ يد عائشة لابنه جبير؟ لا نتصوّر أنّ تلك الخطبة حدثت وعائشة دون السّادسة على أساس الارتباط إلى أن تبلغ سنّ الزواج. فخطبة عائشة لجبير بن مطعم كانت في الجاهليّة، والأقرب إلى منطق الأحوال أنّ عائشة كانت في السّادسة من عمرها.

---

37 - ابن حجر، الإصابة في تمييز الصّحابة، 4/359. سبق ذكره.

38 - ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/210. سبق ذكره.

39 - ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، 1/570. سبق ذكره.

وإذ عرفنا من هو مطعم ومن هو جبير بن مطعم وما علاقتهما بأبي بكر، رجّحنا صحّة الخبر وواقعيّته، ويكون مولد عائشة وارتباطها بجبير، وفق التواريخ المفترضة الآتية:

مولد عائشة	596م	597م	598م	599م
خطبها مُطعم لابنه وهي في السّادسة	602م	603م	604م	605م

نلاحظ أنّه وقع خلط كبير في التّواريخ: خُطبت عائشة وهي في السّادسة من عمرها لجبير بن مُطعم بن عديّ بن نوفل، حسب العادة المعهودة بين الأهل والأصدقاء، ولم يخطبها الرّسول وهي في السّادسة من عمرها. بقي أن نعرف هل تزوّجت عائشة بجبير بن مطعم، أم ألغي العقد بفسخ الخطوبة لسبب ما؟

هل تزوّجت عائشة بجبير بن مطعم؟

سؤال يعجب منه بعض النّاس ويهزأ منه آخرون ربما لأنّه يثير العقول، ولكن هل من مانع لطرحه؟ لا شيء؛ بل المنطق السّليم والبحث المنهجيّ والاستقراء الموضوعيّ كلّ ذلك يفرض طرحه.

إذا عدنا إلى رواية عبد الله بن أبي ملكية السّابقة نجده ينسب إلى أبي بكر القول الآتي: «إنّي كنت أعطيتها مطعمًا لابنه جبير، فدعني حتّى أسلّها منهم، فاستسلّها منهم فطلّقها، فتزوّجها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم».[40]

ونجد في المعجم الكبير للطّبراني تنويعة أخرى من الرواية: «عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: «خَطَبُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَائِشَةَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ قَدْ زَوَّجَهَا جُبَيْرَ بْنَ مُطْعِمٍ فَخَلَعَهَا مِنْهُ فَزَوَّجَهَا رَسُولَ اللهِ».[41]

هي رواية واحدة لم نجد لها ذكرًا فيما بين أيدينا من المصادر والمراجع إلاّ عند ابن سعد والطبرانيّ. توقّف بعض المتحذلقين عند ألفاظ وعبارات محدّدة في متن الرّواية هي: «أسلّها»، «منهم»، «طلّقها»، «خلعها منه» وهي، كما نرى، تفيد أنّ زواج عائشة بجبير قد تمّ. وقالوا: «لا يكون «الاستلال» إلاّ إذا كانت عائشة في منزل مطعم أو ابنه جبير» وهذا يفيد الزّواج والبناء. وقالوا: «ما ورد تركيب الجرّ منهم إلاّ إذا كانت عائشة بينهم» وهذا يؤيّد الأوّل. وقالوا: «لا يكون «طلاق» إلاّ بزواج» وقالوا: «لم يكن جبير أو أبوه يريد الطّلاق، فما كان من أبي بكر إلاّ أن «خلع» ابنته». واستنتجوا اعتمادًا على رواية الطبرانيّ: بأنّها كانت متزوّجة برجل آخر قبل الرّسول، وهذا يعني أنّ أبا بكر قد خلعها من زوجها، ثمّ عرضها على رسول الله.[42]

40 - ابن سعد، الطبقات الكبرى، 7/59. سبق ذكره.

41 - الطبراني (ت: 360هـ) المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية، الطبعة: الثانية، القاهرة 1986م، 23/26.

42 - جعفر العاملي، الصّحيح من سيرة النبيّ الأعظم. مكتبة الكوثر، لبنان، بيروت، 2009م. ص 38

يتراءى هذا المنهج الاستقرائيّ غير سليم، فمن جهة، هو ينكر أن يكون النبيّ خطب عائشة وهي في السّادسة حيث قال: «كان عمرها حين تزوّجها الرّسول حوالي عشرين سنة، إن لم يكن أكثر من ذلك بكثير، بدليل أنّها أسلمت في أوّل البعثة بعد ثمانية عشر إنسانًا فقط»، ومن جهة أخرى يقبل رواية الطّبراني.

لا شيء في الرواية يدلّ على أنّ عائشة تزوّجت بجبير بن مطعم، والاستقراء التاريخيّ والواقعيّ ينفي تلك الزّيجة وإن كانت نظريًا ممكنة.

أمّا رواية خطبة عائشة وسودة في الوقت نفسه، فقد رويت بصيغ عديدة، نذكر مقطعًا منها حسب صياغة الذّهبي في كتابه: تاريخ الإسلام: «قالت عائشة: لمّا ماتت خديجة رضي الله عنها جاءت خولة بنت حكيم إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فقالت: ألا تزوّج؟ قال: ومن؟ قالت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيّبًا. قال: من البكر ومن الثّيّب؟ فقالت: أمّا البكر فعائشة بنت أحبّ خلق الله إليك، وأمّا الثّيّب فسودة بنت زمعة، قد آمنت بك واتّبعتك، قال: اذكريهما عليّ. قالت: فأتيت أمّ رومان، فقلت: يا أمّ رومان، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة! قالت: ماذا؟ قالت: رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يذكر عائشة».[43]

نجد هذه الرّواية عند الطبريّ في «تاريخ الرّسل والملوك»، وذكرها كلّ من محمّد بن يوسف الصّالحي الشّامي في «سبل الهدى والرّشاد في سيرة خير العباد»، والبيهقيّ في «دلائل النبوّة» وهذا الخبر لا يستقيم عقلًا ولا نقلًا ولا تاريخًا. أهمّ ما ورد فيه هو فسخ الخطوبة بين مطعم وأبي بكر، وزوجة مطعم هي التي فسخت الخطبة وذكرت السّبب ووافقها عليه زوجها، وهذه الحادثة الرئيسيّة لم تقع إثر وفاة أمّ المؤمنين خديجة، وتاريخ وفاتها مختلف فيه بفارق عشر سنوات كما سنرى.

فمتى وقع فسخ الخطبة بين أبي بكر ومطعم؟ لا يكون ذلك إلاّ في مكّة وقبل وفاة خديجة. فلئن افترق أبو بكر ومطعم دينًا فإنّهما لم يفترقا صداقة وتعاملًا وتعاونًا وتآزرًا واحترامًا، وقد ذكر المؤرّخون لمطعم مواقف نصر فيها الإسلام والمسلمين.

لقد رأينا الصّلة الوثيقة بينه وبين أبي بكر، فكانت الخطبة لسبب وكان فسخها لآخر؛ فإنّ مطعمًا، ككلّ الآباء، توقّف في شأن ابنه جبير وخاف أن يسلم إن تزوّج بعائشة، ومن المرجّح أنّ مطعمًا صارح صديقه أبا بكر في هذا، واتّفقا على فسخ الخطبة كما يتّفق شخصان عاقلان متحضّران يراعيان الصداقة والواقع، ولسبب ما، لم يلتفت أحد من مكّة ليخطب عائشة بعد ذلك، وعندما هاجر أبو بكر وعائلته إلى المدينة لم يفكّر أحد من الصّحابة في خطبة عائشة، فلماذا، يا ترى؟

43 - الذّهبي، تاريخ الإسلام، 1/643. سبق ذكره.

وفاة خديجة:

أراد الزّواج وتزوّج وهو «في الخامسة والعشرين من عمره» أي أنّه تزوّج سنة 596م، هذا الشابّ هو محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب وابن آمنة بنت وهب لم يتزوّج بأمر ولا بوحي إلهيّ، لقد فكّر زمنا واختار وانتقى، ومن المرجّح أنّه أرسل الخاطبات لجسّ النّبض، وفي سنة 596م كانت أسماء بنت صديقه أبي بكر بين السّابعة والعاشرة من عمرها، فلو كانت له رغبة في الصّغيرات، وهو في الخامسة والعشرين، فما منعه أن يخطب أسماء أو غيرها؟ أمّا عائشة فإمّا أنّها كانت في الثّالثة أو ولدت في ذلك العام.

توفّيت خديجة وقد أدّت رسالتها على الوجه الكامل، لقد صدّقت زوجها وآمنت بنبوّته ورسالته دون تردّد ولم تحتج في ذلك إلى ورقة بن نوفل ولا إلى غيره ولا إلى ما افتراه الوضّاعون من «خاتم نبوّة»، عقلها الفذّ كان كافيها وربّها كان هاديها، كانت المسكن والسّكن لزوجها، ولئن اتّفق على أنّ وفاتها كانت «عام الحزن» (السّنة العاشرة من النبوّة) إلاّ أنّه حصل اختلاف في تدقيق تاريخ وفاتها على أقوال:

- قبل الهجرة بخمس سنين: (622 – 5 = 617م).

- قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين: (622 – 3 = 619م).

- سنة عشر من البعثة: (611 + 10 = 621م).

ونظرًا لارتباط خطبة عائشة وزواجها من الرّسول بوفاة خديجة، فإنّ لذلك أهميّة في تحديد وضعيّة عائشة، وفق ترتيب الأحداث تاريخيًّا:

مولد عائشة	596م	597م	598م	599م
خطبها جبير لابنه وهي في السّادسة	602م	603م	604م	605م
مولد النبيّ في 571م فيكون عمره آنذاك	25 سنة	26 سنة	27 سنة	28 سنة

يبيّن الجدول أنّ خطبة عائشة لجبير كانت إمّا في السّنة الّتي تزوّج فيها محمّد بخديجة، أو بعد ذلك، فالظّاهر أنّ فكرة النّسب بين الصّديقين محمّد وأبي بكر لم تخامرهما، وإن خامرت أحدهما، فإنّه لم يصرّح بها لصاحبه.

إن كنّا لا ندري بالضّبط متى فسخ مطعم الخطوبة، فإنّ ذلك حدث لا محالة قبل وفاة خديجة، ولعلّ ذلك حدث في أشدّ فترات الدّعوة تأزّمًا وأحلكها على المسلمين في مكّة، فربّما وافقت «عام الحزن». واعتمادا على التّواريخ الثّلاثة المذكورة لوفاة خديجة، نسجّل ما يأتي:

- في 617م يكون عمر عائشة بين 18 سنة و21 سنة.

- في 619م يكون عمرها بين 20 و23 سنة.

- في 621م يكون عمرها بين 25 و22 سنة.

فإن كان للنبيّ رغبة في الزّواج من عائشة، فلماذا لم يخطبها عندما توفّيت خديجة؟ قال ابن عساكر: «هلكت خديجة قبل الهجرة بثلاث سنين، فأتت خولة بنت حكيم بن الأوقص السلميّة امرأة عثمان بن مظعون إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقالت: يا رسول الله، إنّي أراك قد دخلتك خلّة لفقد خديجة. فقال: أجل أمّ العيال وربّة البيت. فقالت: ألا أخطب عليك؟ قال: بلى، أما إنّكن يا معشر النّساء أرفق بذلك. فخطبت عليه سودة بنت زمعة من بني عامر بن لؤي وخطبت عليه عائشة ابنة أبي بكر رضي الله عنهما».[44]

هذا كلام مردود على صاحبه، وكلّ رواية عن خطبة الرّسول لعائشة لا تستقيم مع التّواريخ، لا غرابة أن تكون خَوْلَة بِنْت حكيم عرضت على الرّسول وساطتها في الخطبة. والأكيد أنّها ذكرت سودة بِنْت زمعة ولا نعلم لذلك مبرّرًا، ولكن من العسير التّصديق بأنّها ذكرت له عائشة بنت أبي بكر في الوقت نفسه.

فإن كان عمر عائشة «ستًّا» فإنّ خَوْلَة بِنْت حكيم المرأة العاقلة أرجح عقلًا وأبعد من أن تذكرها. وإن كانت عائشة بلغت سنّ الزواج، فإنّ أباها والرّسول يعلمان ذلك فلا تتدخّل خَوْلَة بِنْت حكيم بينهما إذ ربّما وقع رفض من أحد الطرفين.

إثر وفاة خديجة، «دخلت الرّسول خلة» فعلًا. قضى أشهرًا ولم يفكّر في الزّواج رغم الحاجة الأكيدة إليه اجتماعيّا ونفسانيّا وإنسانيّا. ما كان ليفكّر في عائشة ولا في غيرها وهي في السّادسة أو التّاسعة. والسّبب الأهمّ هو أنّه لم يكن في حاجة إلى زوجة صغيرة بقدر ما كان في حاجة إلى «ربّة بيت» ترأف باليتيمات؛ لذلك تزوّج السيّدة سودة بنت زمعة وهي أرملة متقدّمة في السنّ، واختارها النبيّ لا لجمالها ولا لنشاطها الجنسيّ، وإنّما لترعى البنات اليتيمات الصّغيرات وتحفظ البيت إلى أن يزوّج البنات.

لم يأت ذكر التّصاهر بين الصّديقين وما كان النبيّ ليبدأ صديقه بذلك، ومن الأكيد لو أنّ خَوْلَة بِنْت حكيم ذكرت أسماء أو عائشة لصرفها الرّسول عن ذلك، ذكرت خَوْلَة سودة ولم تذكر غيرها. وتزوّج الرّسول بثانية أمّهات المؤمنين سودة بنت زمعة بن قيس القرشية العامرية: «سودة أم المؤمنين رضي الله عنها: سودة بنت زمعة بن قيس، تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خديجة، انفردت بصحبة رسول الله

44 - ابن عساكر، تاريخ دمشق. 3/172. سبق ذكره.

صلى الله عليه وسلم أربع سنين لا يشاركها فيه امرأة ولا سريّة، وهي من سادات النّساء، توفّيت فِي خلَافَة عمر بن الْخطّاب».[45]

لم يذكر **الصفديّ** أنّ الرّسول خطب عائشة مع خطبته لسودة ولا طيلة تلك السّنين الأربع، ولسنا نتقوّل على أمّ المؤمنين سودة، وإنّما يبدو أنّها لم تفهم دور زوجها ولم تقدّر ظروف تبليغ الرّسالة: «وكانت امرأة ثقيلة ثبطة».[46]

«ثَبَطَه عن الشّيء ثَبْطاً وثَبَّطَه: رَيَّثه وثَبَّته. وثَبَطْتُ الرجلَ ثَبْطاً حبَسْتُه. وفي الحديث: كانت سَوْدةُ امرأَةً ثَبِطة؛ أَي ثقِيلة بَطِيئةً من التَّثْبِيطِ وهو التعْوِيقُ والشَّغْلُ عن المُراد».[47]

واعتمادًا على أنّ الرّسول تزوّج وعمره 25 سنة وبقيت خديجة معه 25 سنة، كما يقول المؤرّخون، (50+571=621م). فيكون «الوسط» عام 619م تاريخ وفاة خديجة، والزّواج بسودة عام 620م. ويكون الزّواج الثّالث سنة 624م أو بعدها. وسنة 624م توافق السّنة الثّالثة للهجرة. ولنعتبرها توافق السنة الثانية للهجرة. هذا يجعل من العسير القبول بوقوع أحداث الرواية المذكورة في سنة 624م، بما أنّ مطعم بن عديّ بن نوفل مات في السّنة الثّانية للهجرة قبل غزوة بدر، ولم يسلم. والاعتراض الأخير هو أنّه لا وجه لأن يخطب الرّسول امرأتين في الوقت نفسه، ويتزوّج بالأرملة المتقدّمة في السنّ ويترك الفتاة البكر.

زواج النبيّ بعائشة:

إنّ الحديث عن زواج النبيّ بابنة صديقه وأوّل المساندين له بالمال واللّسان، لا يجب أن يجتثّ عن واقعه التاريخيّ والاجتماعيّ وإلاّ تحوّل التاريخ الى لغو. وإذا انتهى الأمر ببعض الرّواة إلى جعل عمر عائشة «تسعًا» عند زواجها فذلك هزؤ يتجاوز اللّغو.

تغيّرت الظّروف المعاشيّة للأنصار وللمهاجرين في المدينة، بعد الهجرة مباشرة، فبالنّسبة لهؤلاء، فقد وقعت قطيعة حادّة بينهم وبين مجتمعهم الأوّل، وإذا قصرنا الكلام على أبي بكر، فإنّ ابنته أسماء تزوّجت الزّبير بن العوّام في مكّة، ومن المرجّح أنّه قلق إذ لم يخطبها أحد وقد تجاوزت الخامسة والعشرين أو قاربت الثّلاثين من عمرها، وما كان أبو بكر ليزوّج إحدى بناته لمشرك، وفي المدينة، وجد نفسه «غريبًا» بدرجة أو أخرى ككلّ المهاجرين، ومرّت سنة أو أكثر ولم يتقدّم أحد لعائشة والعمر يجري.

45 - الصّفدي، الوافي بالوفيات. 16/25. سبق ذكره

46 - المرجع السّابق، 16/26.

47 - ابن منظور(ت: 711هـ) لسان العرب، دار صادر، الطبعة: الثالثة، بيروت، 1414هـ.7/267.

بثّ الصدّيق همومه الدنيويّة بصورة أو بأخرى إلى صديقه الرّسول، وانتهى الأمر بأبي بكر بأن عرض عائشة على أعزّ أصدقائه، وهل كان ليجد مثله؟ وما كان الرسول ليكسر خاطر الصدّيق، وهل كان ليجد صهرًا مثله؟

نحن إذن، في السّنة الثّانية للهجرة (620 + 4 = 624م)، وفيها تزوّج النبيّ عائشة ودخل عليها وبنى بها، وكلّ حديث عن خطبة الرّسول لعائشة قبل هذا التّاريخ لا يستقيم؛ حيث تكون لدينا الاحتمالات الآتية:

مولد عائشة	596م	597م	598م	599م
عمرها سنة 624م	28 سنة	27 سنة	26 سنة	25 سنة

كان زواج الرّسول من عائشة زواجًا مدنيًا اجتماعيًا ككلّ زيجات الرّسول، وككلّ الزّيجات عند المسلمين آنذاك. لم يتزوّج الرّسول عائشة عن وحي ولا «جبريل جاءه بصورتها»، ولم يتزوّج عائشة لصغر سنّها، ولم يتزوّجها لجمالها؛ إذ لم تكن في الواقع بارعة الجمال، وإنّما تزوّجها لخلقه في توقير أبي بكر، وتقدير شخصه ودوره في الإسلام وجبرًا لخاطره.

ولا غرابة البتّة في أن يعرض أبو بكر عائشة على النبيّ، فلم يكن الوحيد ولا الأوّل ولا الأخير، فقد عرض عمر بن الخطّاب ابنته حفصة على الرّسول، وكذلك فعل أبو سفيان بابنته أمّ حبيبة، وغيرهم كثير. وقد تجاوزت الخامسة والعشرين فعليًا، حسب التقصيّات التاريخيّة التي تمّ استقراؤها من الرّوايات والأحداث، ونرجّح اعتمادًا على الجدول السّابق أنّها كانت في الثّامنة والعشرين عندما تزوّجت الرّسول، معارَضَةً لأقوال صنفٍ من الرّواة، كانوا في أثرِ كلِّ نقلٍ يهيمون، ويكتبون ما لا يوقنون.

قائمة المصادر والمراجع:

1- محمّد بن إسحاق (ت: 151هـ) السّير والمغازي، تحقيق: سهيل زكّـار، دار الفكر، الطبعة: الأولـى، بيروت، 1398هـ/1978م.

2- أبو نعيم الأصبهاني (ت: 430هـ) معرفة الصّحابة، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنّشر، الطبعة: الأولى، الرّياض، 1419هـ/1998م.

3- شهاب الدين الألوسي (ت: 1270هـ) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطيّة، دار الكتب العلميّة، الطّبعة: الأولى، بيروت، 1415هـ.

4- محمّد ضيف الله بطانية، الحياة الاجتماعيّة في صدر الإسلام، مكتبة دار الحياة، المدينة المنوّرة، 1409هـ/1988م.

5- الزّبير بن بكّار (ت: 256هـ) المنتخب من كتاب أزواج النبيّ. تحقيق: سكينة الشّهابي، مؤسسة الرّسالة، الطبعة: الأولى، بيروت، 1403هـ.

6- البيهقي (ت: 458هـ)، السّنن الكبرى، تحقيق: محمّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة: الثالثة، 1424هـ، 2003م.

7- الذّهبي (ت: 748هـ) تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، تحقيق: بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، 2003م.

8- الذّهبي، سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، 1427هـ، 2006م.

9- ابن حجر العسقلاني (ت: 852هـ) فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار المعرفة، بيروت، 1379هـ.

10- ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصّحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، بيروت، 1415هـ.

11- ابن خلّكان (ت: 681هـ) وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 1980م.

12- الزّركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة: 15، أيار/ مايو 2002م.

13- ابن سعد (ت: 230هـ) الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، الطبعة: الأولى، بيروت، 1968م.

14- شمس الدين، الشّربيني (ت: 977هـ) السّراج المنير، مطبعة بولاق الأميرية، القاهرة، 1285هـ.

15- الصّفدي (ت: 764هـ) الوافي بالوفيّات، المحقق: أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث، بيروت، 1420ه، 2000م.

16- الطبراني (ت: 360هـ) المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية، الطبعة: الثانية، القاهرة، 1986م.

17- أبو جعفر الطبري (ت: 310هـ) تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، لعريب بن سعد القرطبي، (ت: 369هـ) دار التراث، الطبعة: الثانية، بيروت، 1387هـ.

18- علي الطنطاوي، أبو بكر الصدّيق، دار المنارة، جدة، الطبعة الثالثة، 1406هـ/1986م.

19- ابن عبد البرّ (ت: 463هـ) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمّد البجاوي، دار الجيل، الطبعة: الأولى، بيروت، 1412هـ/1992م.

20- ابن عساكر (ت: 571هـ) تاريخ دمشق، المحقّق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنّشر، بيروت، 1415هـ، 1995م.

21- ابن كثير (ت: 774هـ) تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمّد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، الطبعة: الأولى، بيروت، 1419هـ.

22- ابن منظور (ت: 711هـ) لسان العرب، دار صادر، الطبعة: الثالثة، بيروت، 1414هـ.

23- تقي الدين المقريزي (ت: 845هـ) إمتاع الأسماع، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1420هـ، 1999م.

24- ابن هشام (ت: 213هـ) السّيرة النبويّة، تحقيق: مصطفى السقا، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطبعة: الثانية، 1375هـ/1955م.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2016

جميع الحقوق محفوظة © 2016